المحاضرة الثامنة:

كيف تُحَوّل المدرسة المعاصرة عدم المساواة الاجتماعية إلى عدم مساواة تعليمية؟

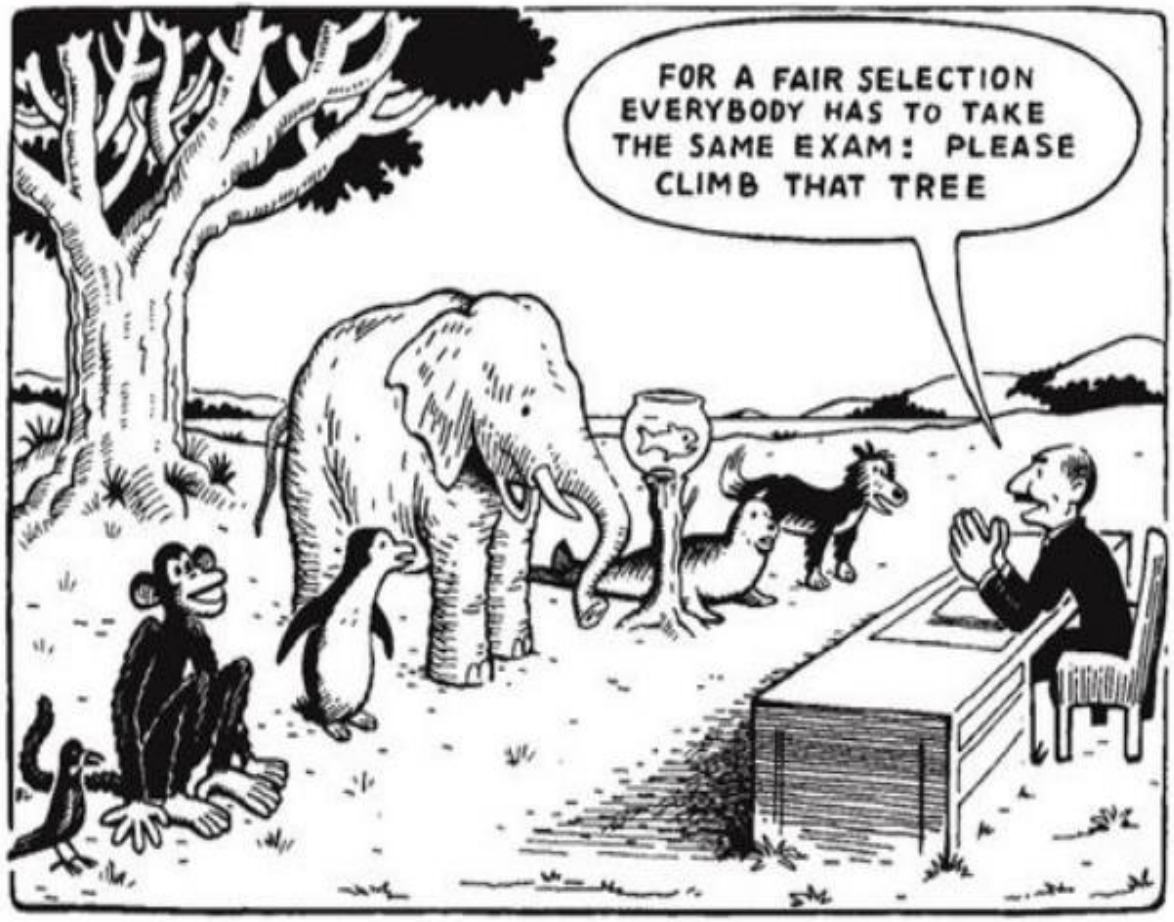

يخاطب السيّد الجميع قائلا" ليكون الاختبار عادلا سيكون للجميع نفس التّحدّي:

من فضلكم تسلّقوا تلك الشّجرة"

"Demandez à un poisson de grimper à un arbre et il se considérera comme un crétin toute sa vie" Albert Einstein

- يقول رتشارد ويلكينسون Richard Wilkinson "أعتقد أن الإحساس بأنّ عدم المساواة الاجتماعية هي سبب تآكل وخراب المجتمع كانت ومازال قائمة منذ ما قبل الثورة

الفرنسية. ما تغير منذ ذلك الوقت هو أنّنا اليوم نستطيع أن نرى الدّليل على ذلك، وأن نقارن بين المجتمعات التّي تتباين بها "عدم المساواة"، ونرى كيف أنّ عدم المساواة الاجتماعية تؤثّر عليه" [1].

- هل نحن جميعاً متساوون عندما يتعلق الأمر بالتّعلم؟، لماذا يقوم بعض الطّلاب بعمل أفضل في المدرسة من غيرهم؟، و لماذا يفشل بعضهم في الامتحان؟،...هذه عينة من عديد الأسئلة الكثيرة الحضور في الحقول العلمية حينما يطرح موضوع التّربية والتّعليم، وسبل تنميتهما.
- تتلخص علاقة عدم المساواة الاجتماعية باللاّمساواة التّعليمية، في أنّ أكثر الأشخاص المثقفين المنتمين للطبقة العليا /المتوسطة لديهم لغة وتمثّلات ثقافية مُتميّزة، ودوافع تعزّز النّجاح التّعليمي، يقومون بتوريرثها لأبنائهم، في حين أنّ أبناء الطبقات الدّنيا لديهم رأس مال ثقافي أدنى، وصعوبات تعليمية أكثر. وعليه كل الممارسات البيداغوجية ليست بريئة، فلا وجود لبيداغوجية محايدة La pédagogie neutre n'existe pas كما يُقال.
- منهجياً يعتقد "فيليب بارنو "أنّه لا يمكن تفسير الفشل المدرسي إلاّ من خلال مقاربة متعدّدة التّخصصات، ولكن لا يمكن تصور ذلك إلاّ إذا كان هناك بين العلوم الإنسانية حد أدنى من الإجماع على طبيعة الظاهرة المُراد شرحها وحالة التّفسير. ولكن لسوء الحظّ، فإن اللغة المشتركة الأكثر سهولة، هي لغة التّحليل المتعدّد المتغيّرات التّي تؤدّي إلى تفسير وهمي.
- المدرسة ليست متغيّر محايد في العملية التّعليمية، إنّما هي جهاز أيديولوجي كباقي الأجهزة. وقد برهنت على ذلك عديد الأطروحات من (بيار بورديو وباسرون، بودون،

---

[1] رتشارد ويلكينسون، **كيف يؤثر عدم تكافؤ الفرص الاقتصادية على المجتمعات تأثيراً سلبياً، TED Global 2011**
https://www.ted.com/talks/richardwilkinsonhoweconomicinequalityharmssocieties/transcript?language=ar

لويس ألتوسار ... وميشيل لوبرو Michel Lobrot الذّي عرض مقاربته للاشكالية من خلال نص عنونه 'الفشل المدرسي والثّقافة Échec scolaire et culture" أين حاول تفسير الفشل الواضح الذّي عرفته حركة نشر الثّقافة المكتوبة La culture écrite ، خاصّة في عصرنا الحالي، بنقض فرضية "بيير بورديو " حول ثيمة الثّقافة باعتبارها ميزة خاصّة بالطّبقات العليا، والتّي تقوم بتسويقها باعتبارها 'رأس مال Capital' خاص، يمنح لهم خاصيّة التّمييز La distinction عن باقي الطّبقات. أين حاول البرهنة بأنّها -الثّقافة- لا تنتمي في حدّ ذاتها إلى أيّ فئة بعينها، بل تخضع في منطق تطورها وانتشارها لتأثير العوامل 'الإيكولوجية Écologiques '، حيث أنّ اللّقاءات التّي يصنعها الأفراد مع الواقع المحيط، والتّي تنشأ من وضعيتهم ضمن الفضاء الطبيعي والاجتماعي، أين تفرز بدورها حالات نفسية ومواقف وتجاذبات ورفض Attirances et des rejets تكون أساس تشكيل الفئات الاجتماعية وتصنيفها اجتماعيا[2].

- فالتّلميذ/ الطفل لا ينفكّ جاهدًا عن مّوْضَعَة ذاته، اجتماعياً وثقافياً، فهو كالرّاشد في ذات الفعل. وهو يقرأ.. يكتب.. يفكر.. ينتج، إنّما يسعى دائماً لتحديد مكانته ضمن الفضاء الاجتماعي والثّقافي. وبهذا المعنى تصبح المدرسة وهي تحكم على أحدهم بالفشل، لأنّها مؤسّسة تُمَوْقع الأفراد والجماعات، وتُصنّفهم وتُفيّئهم بحسب درجة قبولهم أو رفضهم لمنتوجاتها وثقافتها[3]. ولأنّها كما يقول " George Lapassade" ليست مجرد وسيط محايد لنشر المعرفة والقيم، أو مكان يتم فيه الاتصال ما بين المعرفة والطلاب، بل هي فوق ذلك كلّه تعبير عن الأيديولوجيا السّائدة وإحدى الأدوات المهمّة لنشرها.
- بدوره يؤكّد "Philippe Perrenoud" على دور النّسق التّعليمي في صناعة الفشل، حيث تحدث مواجهات بين توقعات التّلاميذ، والمدرسة والتّنظيم والممارسات المسؤولة عن الفشل.

---

[2] Michel Lobrot, "À quoi sert l'école ?", Paris, Armand Colin, 1992, 184 p

[3] Idem.

- من خلال ثلاثة أطروحات في صناعة النّجاح/ الفشل التّعليمي، وإن كانت عمليا جدّ متداخلة:

1. صناعة الحُكم La fabrication du jugement : النّجاح والفشل التّعليمي ما هو إلاّ تمثُّلات مُلَفَّقَة من قبل النّظام المدرسي وفقًا لمعايير وإجراءات التّقييم الخاصة به.
2. تشير أحكام النّجاح والفشل التّعليمي إلى معايير التّميّز التي ترتبط بمنهج دراسي يؤثر محتواه وشكله بشكل مباشر على طبيعة ومدى عدم المساواة.
3. الفشل التّعليمي هو أيضاً فشل المدرسة، يحدث نتيجة التّناقض بين رغبة التّعليم والضّعف النّسبي للمؤسّسة التّعليمية في تحقيق ذلك. حكم المدرسة يجسّده المعلمون خاصة من خلال طقوس الامتحانات والتّوجيه وممارساتهم ضمن الفضاء المدرسي.

- من النّاحية السوسيولوجية، ترتبط مفردة صَنَعَ/عَمِل ببناء واقع معيّن La construction de la réalité، لكن حتّى عندما يكون هذا البناء 'واقعي Réaliste' ، فإنّه لا يكون انعكاسًا بسيطًا بدون تأثيره خاص. فالوعي يغيّر التّمثلات والسّلوكات. حتّى لو كانت العدالة عادلة تمامًا، فإنّها ستصدر أحكامًا عامّة لها قوّة القانون تغيّر حياة النّاس. على ذات المنوال حتّى لو كانت 'موضوعيّة' تمامًا، فإنّ التّقييم التّعليميL'évaluation scolaire يلعب دورا محدّداً لنشأة الفشل المدرسي، لأنّه يجعله موجودًا اجتماعيًا. لكي يكون هناك فشل، من الضّروري والكافي للمؤسّسة أن تعلن النّجاح أو الفشل، حيث يشكّل صنع التّسلسل الهرمي للتَميز (كافي/غير كافي Suffisant/Insuffisant) الفشل كواقع اجتماعي مصغّرRéalité micro sociale ، وبتجميع ذلك، يتحوّل لحقيقة إحصائية تميّز المتعلمين في ظلّ ظروف قابلة للمقارنة، حيث تستخدم في تجسيد ذلك "سلطة التّقييم Le pouvoir d'évaluation ". يحدث ذلك رغم تعسّف التّسلسل الهَرمي للتَمَيُّز L'arbitraire des hiérarchies d'excellence[4].

[4] Philippe Perrenoud, "La triple fabrication de l'échec scolaire", in Psychologie française, n° 34/4, 1989, pp. 237-245.

- أضحى اليوم يُنظَر للتّسرب المدرسي باعتباره أكثر أشكال الرّاديكالية للفشل والإقصاء من وجهة نظر تعليمية، فذلك لأنّ مجتمعاتنا تتغافل وتتسامح بشكل كبير مع المساواة في المؤهلات والتّفاوت في الدّخل، ومع ما تَدَرُّهُ من امتيازات وهِبات (Dubet، 2014). ما جعل عديد المجتمعات تقتنع بمبادئ تكافؤ الفرص والعدالة حسب مبدأ الجَدارة Le mérite (Duru-Bellat، 2009)[5]. لكنّها في ذات الوقت تخشى أن تتحوّل عملية الانتقاء La Sélection لحالات الاقصاء Exclusion. لأنّ الانتقاء يُشَرعن النظام الاجتماعي القائم، في حين الاقصاء مصدر مؤكّد لتنامي الاضطرابات وتفشّي اللاّنظام، وتنامي ظواهر الفوضى والأنوميا Anomie، والتّمرد، و الانحرافات التّي تهدّد الأثرياء بنفس القدر وأحيانًا أكثر من بقية السّكان (Damon 2008) [6] .

1. أطروحةإعادة الانتاج والهابيتوس المتميز: Bourdieu et Passeron, 1970

المبدأ الاساسي: المدرسة أداة لاعادة الانتاج La Reproduction الاجتماعي من أجل خدمة الطبقات المُهَيمنَة.

- المستطلع لأطروحة إعادة الانتاج وعلاقتها بالنّسق التّعليمي، يلحظ أنّها كانت انشغالا فردياً وثنائياً وجماعياً لبورديو، حيث انعكست عبر عديد المؤلّفات، منها

Héritiers, la *Reproduction,* la *Distinction,* la *Noblesse d'État, l'Homo academicus, La misère du Monde..*

وعلاقتها المتداخلة في تشكيل مجالات الإنتاج العلمي، الفنون والعلوم..، إلخ.

- حيث يسعى أفراد كلّ جيل للحفاظ على وضعهم الاجتماعي وتحسينه، لأجل ذلك يعمدون لإعادة إنتاج اجتماعي من خلال الجهاز التّعليمي الرّأسمالي، حيث يؤكّد "بورديو" الجهاز المدرسي كنتاج تاريخي مرتبط بنمط الإنتاج الرّأسمالي، إنّها الابن البَار للنّظام الرّأسمالي. فلا يمكن فصلها عن النّظام الاجتماعي القائم المُهيمن، فهي عنصر أساسي فيه. حيث يتم إنتاجه واستنساخه بواسطته. يتم ذلك انطلاقًا من تقسيم المجتمع إلى طبقات، حيث أساليب إضفاء الشّرعية على العالم تشكل التّنظيم

[5] Duru-Bellat, M. Le mérite contre la justice. Paris : PFNSC. 2009
[6] Damon, J. L'exclusion. Paris : PUF (Que sais-je ?). 2008.

الاجتماعي للمجتمعات كما يعتقد 'ماكس فيبر". إنّها أنظمة إضفاء الشّرعية على التّفاوتات الاجتماعية القائمة، والتي هي في خدمة الهيمنة الرّمزية والثّقافية للبرجوازية الرّأسمالية. إذ تساهم المدرسة كنسق اجتماعي بطريقة جوهرية في استدامة النّظام الاجتماعي La pérennité du système social . لأنّ جميع التّراتبات الاجتماعية، للأُبَهَة، للدَّخل، وللسّلطة والتّراث تقوم على تبرير مقبوليتها وشرعيتها الاجتماعية، خاصّة من الفئات المُهيمِنَة Les catégories dominées .

- نموذج تطبيقي لمقاربة نسقية لظاهرة النّجاح/الفشل التّعليمي[7]

إليك مخطط عملي لمقاربة ظاهرة النّجاح/ الفشل التّعليمي، حيث أبرز المتغيّرات الشّبه مشتركة بين مختلف السّياقات الاجتماعية المُمكنة، عبر عديد المجتمعات.

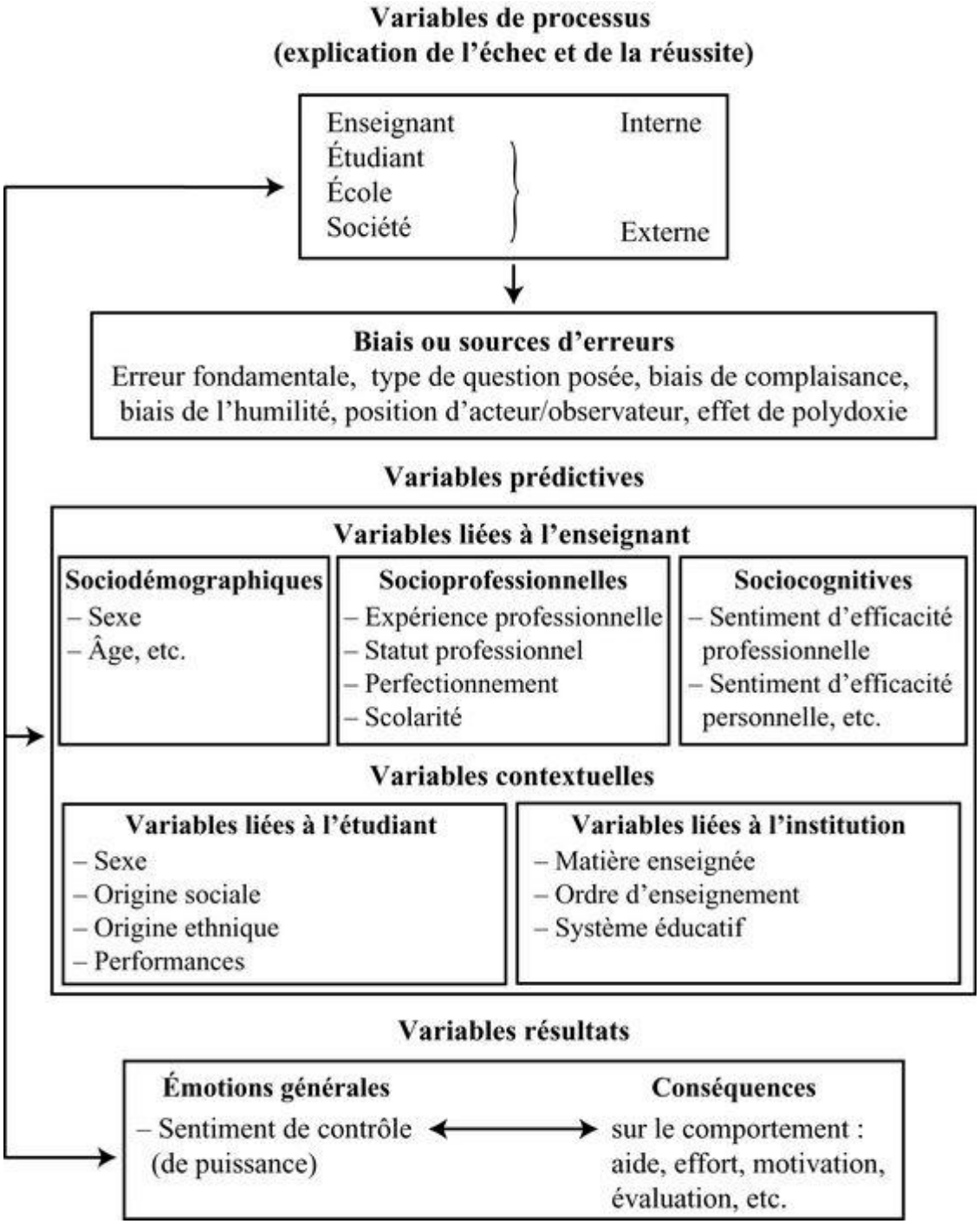

[7]Yamina Bouchamma ,"Relation entre les explications de l'échec scolaire et quelques caractéristiques d'enseignants du collégial", Revue des sciences de l'éducation, Volume 28, numéro 3, 2002, p. 483-716.